الفكاهة في شعر "علي بن سودون" دراسة تطبيقية

إعداد

الدكتور محمود خلف البادي

أستاذ أدب الدول المتتابعة المساعد

قسم اللغة العربية

جامعة الجوف بالمملكة العربية السعودية.

الدكتور أنس أحمد قرقز

أستاذ اللغة والنحو المساعد

قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإدارية والإنسانية

جامعة الجوف، بالمملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

تكمن أهمية الفكاهة عند شاعر مصريٍّ- هو "علي بن سودون" الذي عاش في العصر المملوكي- كونها تؤلِّفُ ظاهرة في حياة الأفراد والجماعات، وربما يعود إلى حالة فراغ يعاني منها المجتمع، أو الإحساس بالألم والضيق من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وتهدف الدراسة إلى استجلاء الأساليب التي طرقها ابن سودون في تعامله مع هذا اللون الفكاهي.

واتَّبع الباحثان في دراسة الفكاهة: المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج التطبيقي؛ لذا جاءت الدراسة موزَّعة في قسمين:

القسم الأوَّل: دراسة تأصيلية نظرية؛ تضمَّنت تعريف الفكاهة والمزاح والهزل والدِّعابة والتهكُّم، والفروق بين هذه المسميات، ثم الحديث عن أهمية الضحك بالنسبة للجماعة، مع نماذج شعرية تؤيِّد ذلك.

القسم الثاني: هو دراسة تطبيقية مدعومة بأمثلة شعرية من ديوان ابن سودون والتعليق عليها، وبيان أهميتها في حياتنا الأدبية والاجتماعية.

وقد خلص الباحثان إلى أنَّ الفكاهة غطاء يتستَّر تحته الشاعر في بيان سلبيات المجتمع والساسة والاقتصاد؛ لاستثارة عقل المتلقي في كيفية العيش في زمان صعب.

الكلمات المفتاحية: الفكاهة الشعرية، علي بن سودون، المنهج الوصفي التحليلي، سلبيات اجتماعية، دور الشعر في حياة المجتمع.

Abstract

The significance of this paper lies in studying an Egyptain poet who lived in Al- Mamluki's period: Ali Bin Sodoun, as it forms a phenomenon in the life of people; this may be due to emptiness state that the society suffers from or feeling of pain and distress of social, economi- cal and political situation

:This study aims to clarify the methods used by Ibin Sodoun in dealing with this humorist method. In this study which is divided into two sections, the researchers followed he analytical descriptive approach.

: The first section: theoretical etymological study includes the definitions of comedy ،

humour, mocking, joking and sarcasm, and the differences of these concepts; then addressed the importance of laughter for folks with poetic evidences supporting this.

[The second section: an applied study conducted and supported by poetic examples of Ali Bin Sodoun's Diwan commenting on them; and illustrating their importance in our literature and socail life. The researchers concluded that he sense of humour is a cover used by the poet to illustrate the socail, economical and political disadvantages to brovoke the recipient (the reader) how to live in difficult time.

المقدمة:

عندما ننظر في السخرية في أدبنا العربي عمومًا وسخرية ابن سودون خصوصًا؛ نجدها عنده ظاهرة متكاملة الجوانب، هذا فضلًا عن ازدواج الشخصية؛ كما قال عبد اللطيف حمزة في كتابه «الحركة الفكرية في مصر» على هذا النحو تعد ظاهرة في حياة الأفراد والجماعات، ولا سيما الشخصية المصرية التي تمتاز بالمرح والفكاهة، ومَرَدُّ ذلك التنفيس عن أنفسهم من ثقل ضغوط الحياة المختلفة في ذلك الوقت، وربما في أيامنا هذه التي نراها لا تختلف كثيرًا عن سابق عهدها.

ويبدو أن ميل المصريين للمرح والدِّعابة في العصر المملوكي يرجع إلى فراغهم من الحروب الصليبية وشعورهم بالراحة؛ الأمر الذي أغراهم على أن يعبِّروا عن سعادتهم، ويتخلَّصوا من الكبت الذي عانوا منه طويلًا، من هنا كان اختيار الموضوع لاستجلاء حقيقة السخرية والكشف عن ملامحها، فضلًا عن أن هذا الموضوع لم يكن موضع دراسة متكاملة لمن قام به من الباحثين، فمن الأبحاث التي تناولت الحديث عن الفكاهة على سبيل المثال لا الحصر: بحث بعنوان «الفكاهة اللطيفة والسخرية المؤلمة»[١] لشاكر عبد الحميد، وبحث آخر بعنوان «أهمية الفكاهة في حياة الناس»[٢] لمحمد فضل الله الشريف، وقد توسع بعض الباحثين في هذا المضمار فأصدروا الكتب المتعلقة بها؛ منها كتاب: «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود» لسيمون بطيش[٣]، وكتاب: «أبحاث في الفكاهة والسخرية»[٤] لمجموعة من الباحثين.

إن الأبحاث والكتب التي ذكرناها تتقاطع مع بحثنا في بعض منها؛ من مثل: المعنى

(١) عبد الحميد شاكر، «الفكاهة اللطيفة والسخرية المؤلمة»، مجلة الدوحة، العدد ٧٠، أغسطس، ٢٠١٣م.

(٢) الشريف مُحَمَّد فضل الله، «أهمية الفكاهة في حياة الناس»، مجلة دار العلوم ديوبد، العدد فبراير ومارس، ٢٠١٠م.

(٣) بطيش سيمون، «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبُّود»، دار مارون عبود، لبنان، ١٩٨٣.

(٤) تنسيق الشايب أحمد، مجموعة من الباحثين «أبحاث في الفكاهة والسخرية »، دار أبي رقراق، المغرب، ٢٠١٤.

اللغوي للفكاهة، ودورها في الكشف عن السلبيات الموجودة في المجتمع والتنفيس عنه، ولكنها لم تتعرض إلى ابن سودون- موضوع بحثنا- الدراسة التطبيقية على شعره من خلال ديوانه الشعري الذي احتلت الفكاهة فيه حيّزًا واسعًا يزيد عن أربعين بالمائة من الديوان، ولما وجدنا أن النسبة عالية؛ دفعنا هذا إلى اختيار الموضوع بدراسة تأصيلية وتطبيقية تنفرد عن تلك الأبحاث بهذه السمة، الأمر الذي يجعل منه بحثًا جديرًا بالاهتمام، ونحن لسنا بدعًا من الأفراد في الخوض في هذا المضمار الذي نتطلع فيه إلى الكشف عن هذه الشخصية الأدبية من خلال دراستنا لهذا الجانب من شعره.

أهمية البحث:

تنطلق أهمية البحث من النقاط الآتية:

نسبة الأشعار التي تشتمل على الفكاهة في ديوان ابن سودون تشكل نسبة عالية تزيد عن أربعين بالمائة من أشعار الديوان، والشاعر بفطرته فكاهي، فهو أشبه بالممثل الكوميدي في عصرنا الحالي، وعدم تطرق بعض الباحثين الذين تكلموا عن الفكاهة في شعر ابن سودون بشكل مفصل في ديوانه الشعري.

المصطلحات والمفاهيم:

المنهج الوصفي التحليلي في دراسة النصوص الشعرية المتعلقة بالفكاهة أو السخرية، وتحليل مضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الدراسات السابقة:

من الأبحاث التي تناولت الفكاهة بحث بعنوان: « أهمية الفكاهة في حياة الناس» للدكتور: مُحَمَّد فضل الله الشريف، نشر في مجلة الداعي الشهرية، دار العلوم ديوبند، لشهر فبراير ومارس٢٠١٥م، تناول فيه صاحبه أهمية الفكاهة في حياة الإنسان؛ لكونها تسهم في شحذ الهمم، والتخفيف من الآلام، والشفاء من الأمراض الجسدية، وبين البحث نظرة الإسلام إلى الفكاهة والضحك.

وهناك بحث آخر بعنوان: «الفكاهة اللطيفة والسخرية المؤلمة» للدكتور شاكر عبد الحميد، نشر في مجلة الدوحة، العدد سبعون، لشهر أغسطس ٢٠١٣م، بين البحث المعنى اللغوي للتهكم وربط ذلك بالفلسفة والفكاهة والسخرية والحداثة، والفكاهة تضرب بجذورها في أعماق النفس البشرية.

ومن الكتب التي أُلِّفت في الفكاهة: «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود»، تأليف: سيمون بطيش، نشر في دار مارون عبودن لبنان، ١٩٨٣م، وقد تناول المؤلف في كتابه الموضوعات الآتية: الفكاهة عند مارون عبود مظهر من مظاهر النشاطات الفكرية الديالكتيكية، وهما خاصتان إنسانيتان، والإنسان الطريف الذي يكسر طوق البداهات؛ لأنه ركَّز على المفاهيم التي تواضع المجتمع على تكريسها وينساق لها كل أعضائه، والفكاهة والسخرية تطبع مؤلفات مارون عبود، وهما خاصتان من خصائص إبداعه، ومحملان بأبعاد لا تؤتي ثمارها في إطار الوعظ والإرشاد.

وهناك كتاب آخر بعنوان: «أبحاث في الفكاهة والسخرية» تأليف مجموعة من الباحثين وتنسيق: أحمد الشايب، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر في أغادير بالمغرب، وطباعة دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٤م، والكتاب جمع مشاركات ندوة أدبية شارك فيها مجموعة من الباحثين، تناولت أبحاثهم الفكاهة واستعمالها كأسلوب لنشر البهجة في النفوس والمتعة والتسلية، وانتزاع الابتسامة من الوجوه العابسة والمتعبة، واستخدام الضحك كآلية نقدية واستراتيجية حجاجية وطريقة للبوح، كما حلّقت بعض أبحاث الكتاب في أجواء الفكاهة والسخرية من زوايا مختلفة من خلال ربطه بالخطب المتنوعة في الآداب والعلوم الإنسانية، وفي الخطب السياسية، التي كان لها تماس مباشر بالتحولات التي عرفها الشارع العربي (الربيع العربي)، فضلًا عن جمالية الفكاهة في الفن الأدبي وبيانه.

إن الأبحاث والكتب التي ذكرناها تتقاطع مع بحثنا في بعض منها؛ من مثل: المعنى اللغوي للفكاهة، ودورها في الكشف عن السلبيات الموجودة في المجتمع والتنفيس عنه،

ولكنها لم تتعرض إلى ابن سودون موضوع بحثنا الدراسة التطبيقية على شعره من خلال ديوان الشعري، لذا وجدنا أن بحثنا ينفرد عن تلك الأبحاث بهذه السمة؛ الأمر الذي يجعل منه بحثًا جديرًا بالاهتمام.

حدود البحث:

يشتمل البحث على النقاط الآتية:

مقدمة ودراسة نظرية عن المصريين وطبيعتهم الساخرة ، وأهمية الفكاهة في حياتنا، والفكاهة في عصر الفراعنة وفي مصر الإسلامية، ومصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية، والفكاهة في الشعر العربي، ثم الدراسة التطبقية.

القسم الأول: الدراسة النظرية:

وتشتمل على التعريف بالمصطلحات المتعلقة بالفكاهة وهي: الفكاهة والمزاح، والهزل والدعابة والتهكم، كما نبيّن الفروقات بين هذه المصطلحات.

أولا: الفكاهة:

قبل أن نتحدث عن الفكاهة لا بد لنا من أن نعرض ثلاث ملاحظات نراها أساسية، وهي لا تتصل بصاحب الفكاهة ذاته بقدر ما تتصل بالموضوع الذي نحن بصدده.

الملاحظة الأولى: إنه لا مُضحك إلا فيما هو إنساني، فإذا ما ضحكنا من حيوان فلأنَّنا وجدنا عنده وضعًا إنسانيًّا، أو تعبيرًا إنسانيًّا، هنا الذي يضحكنا ليس قطعة الجوخ على هذا الحيوان أو ذاك؛ بل الشكل الذي فصَّلها عليه إنسان.

الملاحظة الثانية: إن المضحِك يخاطب العقل وليس الشعور، حيث يتوقف القلب برهة عن الشعور.

الملاحظة الثالثة: ينبغي لهذا العقل أن يكون على صلة بعقول أخرى؛ أي: أن الضحك بحاجة إلى صدى.

فالفكاهة التي هي الضحك تنشأ في أناس مُجْتمعِين يتجهون بانتباههم إلى واحد منهم، وقد أسكتوا عواطفهم وتركوا العمل للعقل وحده.

وهنا نطرح السؤال الآتي: ما الهيئة المضحكة؟ وما مصدر التعبير المضحك في العبارة؟

وهنا نقول: إن بعض صور التشوُّه تمتاز على غيرها بهذه القدرة المشئومة على إثارة الضحك في الأحدب خاصة؛ ألا يبدو الأحدب كرجل ساءت وقفته؟ فكأنَّ ظهره قد تعوَّد هذا الانحناء السيِّئ، وداوم على هذه العادة نتيجة عناد ماديٍّ (أي: تصلُّب الظهر).

الفكاهة كلمةٌ وجد الباحثون صعوبة في تعريفٍ محدَّدٍ لها؛ بسبب كثرة الأنواع التي تندرج تحتها والتي تختلف فيما بينها.

فالفكاهة تشمل: السخرية والتهكم والهجاء والدُّعابة والمزاح والهزل والنكتة، وهذا التعدُّد جعل من الصعب وضع تعريف دقيق لها، ومع ذلك فإنه لا يمنع أن نتبيَّن معناها لغويًّا، فنقول: إن من معانيها المزاح. والفاكه: ذو الفكاهة، والتفاكه: التمازح، والرجل الفَكِه: الذي يُحدِّثُ أصحابه ويُضحكهم، ويقال: فكههم بِمُلَحِ الكلام؛ أي أطرفهم، والاسم: الفكيهة والفكاهة[١].

ثانيًا: المزْح والمزاح المزح والدُّعابة: نقيض الجِد، والمزح والممازحة اسمان للمصدر[٢].

ونُقِل عن بعض العرب أنه: المباسطة إلى الغير على جهة التلطُّف من دون أذيَّة.

وقال أحد الأئمَّة: "الإكثار من المزح يخلُّ بالمروءة والوقار، والتنزُّه عنه بالمرَّة مُخِلٌّ بالسُّنَّة والسيرة النبوية، وخير الأمور الوسط"[٣].

(١) ابن منظور جمال الدين، «لسان العرب»، دار صادر، بيروت، د.ت، (فكه)، ج١٣، ص: ٥٢٣- ٥٢٥.

(٢) ابن منظور، «لسان العرب»، (مزح)، ج ٢، ص: ٥٩٣.

(٣) زاهر أبو دواد، «الفكاهة في الإسلام»، المكتبة العربية، دمشق، د. ت، ص: ٣٣.

ثالثًا: الهَزْلُ والهُزْل: نقيض الجِدِّ، هَزَلَ يَهزُلُ هَزْلًا، وهَزَل الرَّجل إذا لم يجِدَّ، وفلانٌ يهزُلُ في كلامه إذا لم يكن جادًا، وقال الكميت: (١)

أَرَانا على حُبِّ الحياةِ وَطُولِها تَجِدُّ بِنا في كُلِّ يومٍ ونَهزُلُ

رابعًا: الدُّعابة: هي المزاح واللعب والمضاحكة(٢)، وجاء في الحديث: "أنه عليه السلام كان فيه دُعابة"(٣)، والدُّعابة أخفُّ ألوان الفكاهة؛ لأنها فُكاهة أهل الوقار، ويقال: "المؤمن دَعِبٌ لَعِبٌ، والمنافق عَبَبٌ قطبٌ"(٤).

خامسًا: التهكُّم: الاستخفاف والاستهزاء والعبث، أما السخرية؛ فتعني الاستهزاء والسخرية والضحك (٥).

ونلاحظ من خلال معاني الألفاظ التي أوردناها أن دلالات المعجم للكلمة تدلُّنا على أوجه الاختلاف، فالمزْحُ والهَزْلُ يدوران بدلالات متقاربة، ويبقى الأمر على الاستخدام، بينما الضحك هو القاسم المشترك بين هذه الألفاظ، كما أن الابتسامة والضحك والمرح والفكاهة والدعابة والمزاح والهزل كلها تعد ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وتصدر عن الطبيعة البشرية المتناقضة، "فاذا مللت حياة الجِدِّ والعبوس التمست الترويح للنفس عن آلامها"(٦) .

أما عن أهمية الضحك بالنسبة للجماعة؛ فهو أداة تأديب وعقاب لأفراد المجتمع، فالضحك له وظيفة اجتماعية هامة، فهو السيف المصلت الذي تسلّطه الجماعة على رقاب

(١) ابن منظور، «لسان العرب»، (هزل)، ج ١١، ص: ٦٩٦.

(٢) ابن منظور، «لسان العرب»، (دعب)، ج١، ص: ٣٧٥- ٣٧٦.

(٣) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات، ت: ٦٠٦هـ، « النهاية في غريب الحديث والأثر» تحقيق: مُحَمَّد محمود الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩- ١٩٧٩م، ، ج٢، ص: ١١٨.

(٤) السطوحي، سها عبد الستار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١/١ ٢٠٠٧ م، « السخرية في الأدب العربي الحديث »، ص: ٣٧.

(٥) ابن منظور «لسان العرب »، (هكم)، ج ١٢، ص: ٦١٧.

(٦) إبراهيم، «سيكولوجية الفكاهة والضحك» مكتبة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص: ٩، ١٠.

الخارجين على معاييرها الاجتماعية وآدابها العامة، وكلُّ مَنْ يخرج عن تلك المعايير تستهدفه بسخريتها "اللاذعة"، "فهي ما تكاد تلمح سلوكه الشاذ حتى تصبَّ على رأسه النِّكات، فلا يلبث أن يعود مضطرًا إلى حظيرتها"(١).

ولكن هل يبقى الضحك مقبولًا على الدوام أم مرفوضًا على الدوام؟

هذا السؤال الإجابة عنه عند بعض الشعراء والأدباء.

فبعض الشعراء مَنْ مدح الضحك والبشاشة وذم العبوس والتقطُّب؛ فهذا أبو حيان التوحيدي يُورد لأحد الشعراء بيتًا يفخر فيه صاحبه بالبشاشة والضحك، فيقول(٢):

أُهازِلُ حيثُ الهَزْلُ يحسُنُ بالفتى وَإِنِّي إِذَا جَدَّ الرِّجالُ لَذو جِدِّ

وقال آخر(٣):

والجِدُّ شِيمَتُهُ وفيهِ فُكاهَةٌ طَوْرًا ولا جِدٌّ لِمَنْ لا يَلْعَبُ

والجاحظ في كتابه "البخلاء" لم يكن يهدف إلى تسلية قارئه وإضحاكه فحسب، وهو كما نعلم- أي الجاحظ- عَلَمٌ من أعلام الفكر العربي والإسلامي قبل أن يكون أديبًا، إنما كان يعلم أن الضحك لا يكون مستهدفًا لذاته؛ عدا كونه لا يتناسب مع طبيعة المجتمع المسلم الذي يميل إلى الجد في شئون حياته، وقد وضَّح الجاحظ الأمر وهو بداية يدافع عن الضحك، وقد حاول أن يبعد العيب أو تهمة العيب عنه، فقد عدَّ الضحك أمرًا حيويًّا للإنسان كالبكاء، شريطة عدم الإسراف في أيٍّ منهما، فقال: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تُبيِّنُ حُجَّةً طريفةً، أو تعرِّف حيلةً لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك

(١) إبراهيم، «سيكولوجية الفكاهة والضحك»، ص: ٨١.

(٢) التوحيدي، أبو حيان، «الإمتاع والمؤانسة» تصحيح: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، د،ت، ج ١، ص: ٢٧، ٢٨.

(٣) الحوفي، أحمد، «الفكاهة في الأدب العربي أصولها وأنواعها»، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م، ج، ١ ص: ١٣.

منه إذا شئت، وفي لهوٍ إذا مللت الجِدَّ"[١].

وأما موقف الإسلام من الفكاهة والضحك؛ فإنه لم ينهَ عنه إذا كان معقولًا خاليًا من المجون والابتذال؛ فقد كان الرسول ﷺ يضحك ويمزح، وكذلك كان الصحابة والسَّلف الصَّالح، وقد روي عنه (صلى الله عليه وسلَّم) أنه قال: "رَوِّحوا القلوبَ ساعةً بعدَ ساعةٍ؛ فإنَّ القلوبَ إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ"[٢].

وكان صلى الله علية وسلم يقول: "إِنِّي لَأَمْزحُ ولا أقولُ إلَّا حقًّا"[٣]، ومع حبِّ العرب للفكاهة فضلًا عن ضحك النبي ومزاحه مع أصحابه وكذلك السلف الصالح؛ فإنَّ البعض نفَّرَ من المزاح والفكاهة كقول البعض: "المزاح يوجب الشَّرَّ الصَّغير والحرب الكبيرة"، وقال عمر بن العزيز: "اتقوا المزاح؛ فإنَّه حمقة تورث الضَّغينة"[٤].

ونلحظ مما سبق أن الآراء الرافضة للفكاهة والمزاح إنَّما تَعني أنواعًا معيَّنةً من الفكاهة؛ وهي الأنواع التي تنطوي على استخفاف بالمبادئ الأخلاقية، أو سخرية من القيم، فضلًا عن الإسراف في الضحك والفكاهة فإنَّه مرفوض، فالاعتدال يبقى المقبول لمن يريد الفكاهة والمزاح، وصدَقَ الشاعر إذ قال[٥]:

أَفِدْ طبْعَكَ المكدودَ بالجِدَّ راحةً يَجُمُّ وَعَلِّلْهُ بِشيءٍ منَ المَزْحِ

وَلكنْ إذا أعطيتَهُ المَزْحَ فَلْيَكُنْ بِمِقدارِ ما يُعطَى الطَّعامُ مِنَ المِلْحِ

(١) الجاحظ؛ أبو عثمان، «البخلاء»، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب والطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩م، ص: ١٢.

(٢) السيوطي جلال الدين، «الجامع الصغير»، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط٤، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م، ج، ١ ص: ١٣٩.

(٣) ابن حنبل أحمد، «المسند»، مراجعة صدقي جميل العطار، د.ط، ١٤١٢هـ- ١٩٤٤م، ج: ١ ص: ١٦٧.

(٤) السطوحي، «السخرية في الأدب العربي الحديث»، ص: ٤٧.

(٥) الماوردي، أبو الحسن؛ علي بن مُحَمَّد، «أدب الدنيا والدين»، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م، ط ١٧، ص: ٢٨٣.

أهمية الفكاهة في حياتنا:

إن تخيَّلْنا حياةً عابسةً دائمًا فإن ذلك أمر لا يحتمل، فالحياة من دون فكاهة مملة جامدة وثقيلة؛ لأنها مليئة بالهموم والمتاعب والآلام، والفكاهة أو الضحك هو الذي يخفِّف عنا ما نعانيه من ضغوط، ويُلقي عنَّا بعض الأثقال التي ناء بحملها كاهلنا، وقد أدرك العرب قديمًا أهمية الضحك وفوائده، وتحدَّثوا عن ذلك، وكانت العرب إذا مدحت رجلًا قالت: هو ضحوك السِّن، بسَّام العشيات، هشٌّ إلى الضيف، وإذا ذمَّتهُ قالت: هو عبوس الوجه، جهم المحيَّا، كريه المنظر، حامض الوجنة، كأنَّما وجهه بالخلِّ منضوح، وكأنَّما أسعط خيشومه بالخردل[1].

والجاحظ واحد من أدبائنا القدامى الذين أدركوا أهمية الضحك والفكاهة وفائدة ذلك، وقد تحدث في كتابه «البخلاء» حيث أشار إلى أنَّ الضحك "جمامُ النفس وتخفيف لها من شقاء الحياة ونَصَبِها، به تسترد ما فتر من قوتها، وتجدِّد نشاطها وحيويتها"[2]، وذلك من خلال ما قاله عن محفوظ النقاش في «البخلاء»، وكيف أنه أكل طعامًا دسمًا عنده في وقت متأخِّر من الليل، ولكنه هُضِم بسرعة بسبب كثرة ضحكه في تلك الليلة، وهذا دليل مادي على أهمية الفكاهة في الجانب المادي للجسم فضلًا عن أهميتها النفسية، الأمر الذي يعطي هذا البحث قيمة مهمة في حياتنا اليومية، وذلك لارتباطه بظاهرة في غاية الأهمية؛ وهي الحياة الاجتماعية والنفسية، فحياتنا بحاجة ماسَّة إلى الفكاهة المرتبطة بالمزاح والهزل والدعابة والنكتة، كل ذلك مرتبط بالفكاهة ارتباطًا وثيقًا، فضلًا عن امتدادها في حياتنا بكل أبعادها، حيث تمتزج بمقومات الشخصية المصرية في مصر الفرعونية وفي مصر الإسلامية، مرورًا بالعصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني، ومرورًا بالعصر الحديث الذي أكدت معطياته ضرورة السخرية وأهميتها في حياتنا.

(١) إبراهيم زكريا، «سيكولوجية الفكاهة والضحك»، ص: ٤١.

وقد يسأل سائل: ما دواعي ذكر مصر في هذا البحث ضمن الحديث عن الفكاهة؟

والجواب: إن البحث في شقة الثاني دراسة تطبيقية عن شاعر مصري ارتبط بالعصر (المملوكي)، بل هو واحد من أبنائه، الأمر الذي تطلَّب أن نتحدث عن مصر، وأثر الفكاهة في أبنائها.

المصريون وطبيعتهم الساخرة:

يقال: "إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم خُلِق من الضحك، فحين أراد الإله الأكبر أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية فكانت أرجاء العالم السبعة، ثم أطلق ضحكة أخرى فكان النور، وأطلق ضحكة ثالثة فكان الماء، وهكذا تم خلق الروح من الضحكة السابعة"[(١)]؛ لذا فإن روح الفكاهة تُعدُّ من مميّزات الشخصية المصرية؛ حيث عُرِفَ المصريون بحبِّ الفكاهة والميل إلى الضحك، والمصريون يضحكون رغم كل ما يمر بهم من أزمات وويلات ومتاعب، وهم ينظرون بعين الدعابة التي لا تخلو من سخرية إلى العالم من حولهم، فهم يسخرون من أحداث الحياة ومن أعدائهم ومن أنفسهم أيضًا، وكثير من الباحثين مَن تحدَّثوا عن مقومات الشخصية المصرية، وأن المصري لا يميل إلى شيء قَدْرَ ميله إلى الفكاهة والدعابة، وحاولوا تفسير هذه الظاهرة البارزة في حياة المصريين، وإلى ذلك يشير عبد الرحمن حمزة بقوله: "ونحن نعرف أن الخلق المصري كما يمتاز بالحزن العميق والاسترسال في الهموم، كان يمتاز كذلك بميله إلى المزاح، وبحسن اصطناعه للدعابة والفكاهة، وهذا الخلق الأخير هو ما قصد إليه بعضهم من "الأثر العكسي"[(١)] في طباع المصريين، ويقصد بذلك أنه لا بد من أن يغرق المصري في همومه وأحزانه، وتسيطر عليه سحابة من القلق والكآبة، فعمد إلى ترك هذه المظاهر كلها أحيانًا، وانصرف إلى المرح والضحك يأخذ منهما بحظ غير يسير.

ويذهب الدكتور حمزة إلى أن ازدواج الشخصية على هذا النحو ظاهرة في حياة الأفراد

(١) أبو زيد «الفكاهة والضحك»، مجلة عالم الفكر، المجلد (١٣)، أكتوبر نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٢، ص: ٣١٥.

والجماعات وهو عامل نفسي، فهناك أسباب أخرى وراء مرح المصريين وفكاهتهم، منها التنفيس عن أنفسهم من ثقل الضغوط.

إن لباقة الحديث وبراعته ولطف النادرة وحسن المؤانسة خصال ليست مستغربة في أمة قديمة الحضارة، عريقة الآداب، منصرفة إلى معيشة وادعة، هذه الصفات جدير بها- كما يقول العقاد- "أن تكون ينبوعًا فياضًا للنكتة، ولباقة في التعبير في الجد والهزل على السواء، فإن أُضيف إليها عبر الأيام ونقائض التاريخ، وأطوار الحوادث المتعاقبة؛ ففي ذلك مَدُّ للفكاهة لا ينضب، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها إلى التبسُّط والمزاح"(١).

هذه الروح الساخرة نوع من مقاومة الأجنبي والحاكم المتسلط والمقاومة الواعية؛ لأنها مقاومة الإنسان بعقله ومشاعره وأحاسيسه، وهي في الوقت نفسه نوع من الانتقام من الجور والظلم، فالشعب المصري إذًا شعب ساخر منذ القدم، وابن سودون موضوع بحثنا- أحد أفراده الساخرين بشعره ونثره.

الفكاهة في عصر الفراعنة:

من الدراسة التي أجريت على آلاف النقوش التي صوَّرت مناظر الحياة اليومية لقدماء المصريين يمكن استخلاص ملامح المجتمع المصري آنذاك وصفاته وسلوكياته الاجتماعية التي كان يتميز بها، "لقد كان شعبًا تستغرقه الحياة اليومية بمشاغلها وواجباتها ومتعها البريئة، كما كان شعبًا يحب الموسيقى والرقص ويُسَرُّ بكل أنواع الشراب"(٢)، فهناك الكثير من الشواهد الأثرية التي تعكس حب المصريين القدماء للفكاهة، واستخدامهم العبارات المرحة والإجابات المسكتة المفحمة كلَّما وجدوا إلى التهكم والسخرية سبيلًا.

ويظهر ذلك واضحًا في تعليقاتهم القصيرة التي دوَّنوها فوق المناظر والصور المنقوشة على جدران المقابر، أو كتبوها على بعض الصور أو التماثيل.

(١) العقاد؛ عباس محمود، «سعد زغلول سيرة وتحية»، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٥هـ- ١٩٢٧م، ص: ٣٠ ١٣.

(٢) السطوحي، «السخرية في الأدب العربي الحديث»، ص: ١٣.

إننا نرى رسومًا تهكميَّةً ساخرةً تعبِّر في مضمونها الأدبي عن عالم مقلوب رأسًا على عقب؛ فنرى الملوك يقومون بخدمة الملكات، والقطط تخدم الفئران، والثعلب يحرس قطعًا من الأوز.

والفنان بهذا أراد أن يعبر عن التناقض الكامن في أن: "القوة تصبح في خدمة الضعيف"[١]، فهذا دليل على أن الأمور أصبحت مقلوبة.

الفكاهة في مصر الإسلامية:

تعاقبت على مصر بعد الفتح الإسلامي حكومات ودول، انتهى بها الأمر إلى وقوعها تحت حكم الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وظل المصري كما هو تلازمه الفكاهة وروحه الساخرة؛ فعلى سبيل المثال: في عهد ابن طولون كانت المجالس تزخر بالفكاهات، وظهر كثير من الشخصيات الفكهة من مثل: سيبويه المصري[١] الذي رافق الدولة الإخشيدية، وكان يتظاهر بالحمق والتبالة والضحك حين كان ينقد الدولة الإخشيدية وحُكَّامها بمرارة، وهو تنفيس عن المعاناة التي يعانيها الشعب في ذلك الوقت، كما ظهر عدد من الشعراء تميَّزوا بالفكاهة والدُّعابة؛ منهم الملقَّب (بالجمل الأكبر) الذي نادم الأمراء ومدحهم، ونشر الفكاهة والمرح في مجالسهم، وكان هذا الشاعر نديمًا لابن طولون[٢].

الفكاهة في مصر الفاطمية:

اتسعت روح الفكاهة في العهد الفاطمي وخاصة في الشعر؛ فقد سخر المصريون من الفاطميين ونسبتهم إلى فاطمة الزهراء وشكَّكوا في ذلك، حيث نجد أن أحد الشعراء الساخرين يلقي ورقة على منبر المسجد الجامع؛ ليتناولها العزيز ثاني الخلفاء الفاطميين عند صعوده المنبر وقد كتب فيها[٣]:

(١) ضيف شوقي، «الفكاهة في مصر»، دار المعارف، مصر، ١٩٨٨م، ص: ٢٢.

(٢) المرجع السابق، للمزيد، ضيف، «الفكاهة في مصر»، ص: ٢٢

(٣) المرجع السابق، ضيف، «الفكاهة في مصر»: ص: ٣٢

إنَّا سَمِعْنا نَسَبًا مُنْكَرًا	يُتلَى على المنبرِ الجامعِ
إنْ كُنْتَ فيما تدَّعي صادقًا	فاذكُرْ أباكمْ بعدَ الأبِ الرَّابعِ
أوْ فَدَعِ الأنسابَ مستورةً	وَارحَلْ بِنا في النَّسَبِ الواسِعِ
فَإنَّ أنسابَ بني هاشمٍ	يَقْصُرُ عنْها طمَعُ الطَّامِعِ

في هذه الأبيات تهكُّمٌ واضح بالفاطميين، حيث يطلب الشاعر منهم أن يتركوا دائرة النسب الضيّق إلى بني هاشم- كما يرى الشاعر- ويدخلوا في دائرة الأوسع (بني آدم).

لقد ظلَّت السخرية تنتشر هنا وهناك حتى حققت كثيرًا من أهدافها؛ كسخريتهم من تعيين اليهود في المناصب، الأمر الذي اضطرهم إلى إبعادهم(١).

الفكاهة في مصر الأيوبية (العصر الأيوبي):

ظلت روح الفكاهة تلازم المصريين رغم الحروب الصليبية التي استنفدت طاقات البلاد؛ فقد ظهر عدد من الأفراد اشتهروا بالفكاهة من بينهم "القاضي الفاضل" وزير صلاح الدين الأيوبي، "وابن سناء الملك" كاتب صلاح الدين، و"البهاء زهير" أبرز مَنْ استخدم الفكاهة في كتاباته، وقد خلَّف لنا العصر الأيوبي كتابًا في الفكاهة بعنوان: «الفاشوش في حكم القاشوش»، ألَّفه الأسعد بن قماني صاحب ديوان الجيش والمال في عهد صلاح الدين الأيوبي، في هذا الكتاب سخر قماني سخرية لاذعة من حكم قراقوش- أحد قواد صلاح الدِّين الأيوبي وأصفيائه، حيث كان صلاح الدين يترك له أمر البلاد أثناء محاربته الصليبين.

وقد صنع عليه "ابن قماني" حكايات مضحكة تصوِّر حمقه وبلاهته وغفلته، حيث قال: "إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش فاشوش قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمَّة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن

(١) المرجع السابق، ضيف، «الفكاهة في مصر»، ص: ٣٢.

صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل به الله من سلطان،..... صنَّفت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يُريح منه المسلمين"[١].

فمن نوادر قراقوش: أن رجلًا مدح قراقوش بقصيدة، وأنشدها بصوت طيِّب، فقال له قراقوش: "يا مقرئ، لقد قرأت طيبًا، وأنا أريد أن أخرز هذه القصيدة على ذراعي، فأنت مدحتنا ونحن دعونا لك، فجزاك الله عنَّا كل خير، فقال الشاعر: وأنت فلا جزاك الله عنَّا خيرًا، فقال بهاء الدين قراقوش: يا هذا، كأنِّي أراك جائعًا أعطوه مائة إردب قمح، فأخذها الشاعر وانصرف"[٣]، مثل هذه الحكاية تدلِّل على حمق الرجل وغفلته.

الفكاهة في مصر المملوكية (العصر المملوكي):

ضاق المصريون بالمماليك ذرعًا وتذمَّروا منهم؛ لأنهم في نظرهم أرقَّاء اشتراهم السادة بالمال، "وهم ينسون أصولهم أو يتناسون ويتكبرون على المصريين، كذلك كان بعض المصريين يستغربون من وصول بعضهم إلى الحكم وهم رقيق"[٢]، وقد سخر الشعراء وعامة الناس من المماليك، وأطلقوا عليهم ألقابًا عدة؛ فمثلا "كانوا يسمون بيبرس: ركينًا، وركين بمعنى ركن، وأطلقوا على نائبه التتري: رقين؛ لأنه كان أجرد، ولقَّبوا طشقمر بلقب: حُمُّص أخضر"[٣].

وقد استغل الشعراء قدرتهم على التورية واللعب بالألفاظ في سخريتهم، ومن ذلك ما قاله أحدهم بعد مقتل السلطان حسن- وكان فيه ميل للهو وحب النساء-: "ولما أتى "للعاديات" و"زلزلت" حفظ "النساء"، وما قرأ "الواقعة"[٣].

ويبدو أن ميل المصريين للمرح والفكاهة في هذا العصر يرجع إلى فراغهم من الحروب الصليبية وشعورهم بالراحة، الأمر الذي أغراهم على أن يُعبِّروا عن سعادتهم، ويتخلَّصوا من

(١) حمزة، عبد اللطيف، «حكم قراقوش»، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٢م، ص: ٥٤.

(٢) الحوفي، «الفكاهة في الأدب؛ أصولها وأنواعها»، ج٢، ص: ١٠٢.

(٣) ضيف، «الفكاهة في مصر»، ص: ٥٥، ٥٦.

الكبت الذي عانوه طويلًا.

وقد ظهر في هذا العصر نوع من الفكاهة تعتمد على المفارقات "اللفظية "، وقد كان "ابن سودون"- موضوع بحثنا- بطل هذا النوع من الفكاهة؛ حيث يعد ابن سودون أكبر الزجالين الهزليين في ذلك العصر.

الفكاهة في الشعر العربي:

من الخصال الهامة التي تميّز الشعر العربي في مصر أثناء العصور الوسطى: خصلة الفكاهة، فهي خصلة يعتد بها في هذا الشعر منذ أقدم عصوره؛ إذ نجدها مثبتة في نصوصه، بل وفي أسماء بعض شعرائه، كانوا ينبزون بألقاب تدل على هذا الجانب في حياتهم.

ونحن نعرف أن مصر لم تتبين نفسها في تاريخ الشعر العربي إلَّا منذ عصر ابن طولون؛ ففي هذا العصر نجد أهم شعرائها المنبوز بالجمل الأكبر، وإنَّ في هذا النبز ما يدل على روح الفكاهة عنده، وليست المسألة مسألة استنتاج؛ فصاحب "المغرب" يترجم لشاعر آخر جاء بعده بقليل يسمى "الجمل الأصغر"، فيقول: "إنه كان ينحو الظرافة والتطيُّب منحى الجمل الأكبر، وكذلك كان شاعر الأخشيد الملقب بـ"قاضي البقر"، فقد كان الإخشيد يؤثرونه لما فيه من الحلاوة والتندير والهزل"[(١)]، ولعل في ذلك أكبر الدلالة على ما نذهب إليه من انتشار طابع الفكاهة في الشعر المصري؛ فأقدم شعرائه إنما تقوم شهرته قبل كل شيء على الدعابة النادرة وما يتصل بها من هزل، وإذا استمررنا نتقدم حتى العصر الفاطمي وجدنا هذه الخصلة تتضح بأوسع مما اتضحت في العصور السابقة، وذلك لكثرة الشعراء، وما كانوا فيه من ترف أتاح لهم أن يضيفوا إلى الطنبور نغمة بل نغمات.

(١) شوقي ضيف، «الفكاهة في مصر»، ص: ٦٣.

إنَّ من يقرأ نصوص هذ العصر يجد ظاهرة النبز بالألقاب تتسع، ففي كتاب «الجزيرة» للعماد الأصبهاني شاعر يُنْبَزُ بـ(الجهجهان)[١]، وآخر بـ(شلعلع)[٢]، وثالث بـ(الكاسات)[٣]، ورابع بـ(الوضيع)[٤]، وخامس بـ(النسناس)[٥]، وسادس بـ(ابن مكنسة)[٦]، وفي هذا النبز استمرار واضح للظاهرة، ومن يتصفَّح آثار هذا العصر يجدها تتسم بشيات الفكاهة في كثير من جوانبها.

بعد هذه التوطئة التاريخية للفكاهة في مصر نخلص إلى أن العصور التي تكلَّمنا عنها تحفل بمظاهر السخرية أو الفكاهة.

والهدف: هو تنقية مشاعر الإنسان وتخفيف ضغوط الحياة عليه، وارتقاء بأحاسيس البشر؛ لذا فقد امتلأ الأدب الحديث بأشكال السخرية، والحديث عنها شعرًا ونثرًا، بل صارت السخرية جزءًا من الحياة.

ولأن الدرس التطبيقي أصبح ضروريًّا لأي درس أدبي؛ فقد كانت الحاجة ماسة إلى اختيار شخصية بارزة في هذا المجال، لهذا وقع اختياري على الأديب الشاعر علي بن سودون، وهو واحد من شعراء الدول المتتابعة، ومن شعراء مصر المعروفين في ذلك الوقت؛ ليكون موضوع بحثنا، وهو التفكُّه في أدبه، وذلك لما امتاز به من روح الدعابة، ولما غلب في ديوانه هذا اللون من الأدب.

(١) الأصبهاني العماد، «خريدة القصر»، تحقيق: محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥م، قسم شعراء مصر، ج ٢، ص: ١٣٢.

(٢) شلعلع، أبو الفضل جعفر المفضي، انظر: الأصبهاني، «خريدة القصر»، ج ٢، ص: ١٢٤.

(٣) الكاسات، عبد الله بن أبي سعد، انظر: الأصبهاني، «خريدة القصر»، ج ٢، ص: ٦١.

(٤) الوضيع، يحي بن علي الكتبي المنبوز بالوضيع، انظر: الأصبهاني، «خريدة القصر»، ج٢، ص: ٥٦.

(٥) النسناس، انظر: الأصبهاني، «خريدة القصر»، ج ٢، ص: ٧٨.

(٦) ابن مكنسة: وهو أبو المظفر إسماعيل بن محمد، ت: ٥٠٠ هـ، شاعر مصري إسكندري، عاش في النصف الثاني للقرن الخامس الهجري في ظل خلافة المستنصر، انظر: سلام محمد زغلول، «الأدب في العصر الفاطمي»، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص: ١٩٦.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية:

بداية لا بد من الحديث قليلًا عن ابن سودون وبيان قيمته الأدبية، ثم بيان الأسباب التي جعلتنا نختاره موضوعا لدراستنا عن غيره من الشعراء.

علي بن سودون هو: "نور الدين، أبو الحسن؛ علي بن سودون البشغاوي، وُلد بالقاهرة سنه ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧م، ودرس بها، ثم سافر إلى الشام، اهتم بنظم شعر قصصي فكاهي، وله مقامات وحكايات، كثيرٌ منها بلا مضمون أو محتوى"(١).

إنه جاحظ عصره وسيّد ظرفائه الساخرين، احتل مكانة بارزة في أدبنا العربي في فترة تميزت بالضعف والانحدار حينًا والقوة حينًا آخر، وخاصة في هذا اللون الأدبي الذي شغل مساحة كبيرة في حقل أدبنا الساخر، وإذا ما قرأنا نثر ابن سودون فإنه يكشف لنا عن قيمة إبداعية وتجربة مثيرة لها خصوصياتها من حيث التصور والإبداع والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأشياء.

إن سخريته في أدبه ولا سيما في نثره إلى جانب شعره تحتل مكانة كبيرة متفردة في أدبه، بحيث تعد بحق مرآة صادقة لعصره اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، فلم يترك ابن سودون مجالًا فيه عيب إلا وكان له من سخريته نصيب، لقد كانت سخريته بناءً لا هدمًا، وكانت- أيضًا- أحد العوامل التي ساعدت على اعتدال الشخصية المصرية، فضلًا عن كونها ظاهرة متكاملة الجوانب، كما إنها موضع دراسة متكاملة على حدٍّ علمي.

فمن الموضوعات التي تناولها علي بن سودون، وأثارت الضحك في نفوس قرائه ومستمعيه: حديثه عن الطعام والشراب والأوصاف المتعلقة به، إلى جانب موضوعات اجتماعية عديدة، منها: الختان والأعراس، وأوصاف عروسه.

(١) الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ج ٧، ص: ٣٠٧ وانظر أيضًا: السخاوي، شمس الدين، مُحَمَّد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجبل بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ج٥، ص: ٢٢٩

ونبدأ بالكلام عن الطعام والشراب الذي لا يَستغني عنه إنسان، فها هو ذا يذكر في إحدى قصائده أنواعًا من الطعام بطريقة ساخرة فكهة، فيقول(١):

يا واصفَ الأكلِ كُفيتَ المَلام　　كَرِّرْ على سَمْعِنا لَذيذَ الكلام

وَغَنِّ عنِّي في الوَرى مُعْلنًا　　ما طابَ وقتٌ خلا مِنْ طَعام

إن الشاعر ينادي ذلك الشخص الذي يصف الأكل ويطمئنه بعدم لومه على ما يقول، بل إنَّ لذيذ كلامه- وكأنَّ الكلام نوع من الطعام له لذة- نبَّه أسماع الآخرين للطعام؛ لأن ذكره يلامس رغبات الكثيرين المحرومين منه ويدغدغها، فإذا كان الغناء يريح نفوس كثير من الأفراد؛ فإن ذكر الطعام يشبه الغناء يريح النفس، ويجعل الجلسة أو الزمن الذي يخلو منه غير طيب أو لذيذ.

وكثير مَنْ ضاقت يده وضعفت حاله، لم يعد قادرًا على ملء معدته بالطعام لعدم توفُّره، فانعكس ذلك على شكله الخارجي؛ من مثل: عبوس الوجه، فاذا ما رأى موائد الأكل انفرجت أساريره، وانفلجت أسنانه، وضحكت شفتاه فقال(٢):

كم عابسٍ منْ جوعهِ إذا رأى　　موائدَ الأكل غدا في ابتسام

وكما حُلِّيَ الصَّحن بالأكل وزُيِّن؛ تمنَّى الشاعر أن يُحلَّى قلب المحروم بالأكل أيضًا، معتمدًا في ذلك على الجناس الذي يعد سمة من سمات عصره، وهو: حلَّ في الصحن وحَلَّيتَ قلبي، وحلَّ الأولى بمعنى وجد، وفي الثانية زيَّن وأفرح؛ فقال في ذلك(٣):

أَيَا مَنْ أخا حَلَّ في الصَّحْنِ لَوْ　　حَلَّيتَ قَلبي لَمْ يَكُنْ ذا حَرام

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦١

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦١.

(٣) ابن سودون، مخطوط، ص: ١٠.

كلُّ هذا يقودنا إلى ذكر الشاعر أنواعًا عديدة من الحلويات، تطيب نفس المحروم بها كما يطيب أكلها لقلبه، فيذكر المأمونية وقطر النبات؛ فيقول(١):

زُرْني بِمامونيَّةٍ قد غدا — للسُّكَّرِ المنثورِ فيها النظام

ما أحلاكَ يا قَطرَ النَّباتِ الذي — قد خاضَ فيه الموزُ أخي وعام

لا تقطعِ الوصْلَ حبيبي وَقُمْ — زُرْني وَلَوْ بالطَّيفِ عندَ المَنام

إننا نلحظ خفَّة الكلمة وروح الشاعر الفكهة في كل بيت وفي كل جملة، أما الموز؛ فحكايته كحكاية العُشَّاق الذين ترتسم أمامهم قُبُلات محبوباتهم من دون رؤية حقيقية، ولكن زيارة الخيال تريح النفس، وتهدئ قلب العاشق، وهذا هو حال الموز للمحروم، فقال في هذه القصيدة السابقة عينها:

أنت يا ذا الموز يا مَنْ غَدا — ما أرى ما لي عليكَ السَّلام

يا مَنْ تَحاشَى قلبُهُ عن نوىً — قُمْ طَيب العُشَّاق في ذا المَقام

والملاحظ على الشاعر أنه أطلق على الطعام كلمة أخ وحبيب؛ لما في ذلك من عاطفة جامحة وشعور ممتلئ بالحنين والأماني لذلك الطعام الذي حُرِمَ منه الكثيرون.

ويستمر الشاعر بأسلوبه الفكه المضحك يذكر أنواع المأكولات والفواكه والحلويات؛ فها هو ذا في إحدى قصائده يعكس الألم الذي ينتاب الجائعين، بل يعكس ما في دواخلهم من أماني وأحلام ويصف آثار الجوع على وجوههم التي اصفرَّت من الحرمان، وقد تَحْمَرُّ لو رأت ذلك في المنام، فهذه الماوردية التي تَبكي عليها المدافع- ويعني بالمدافع: أصوات الأمعاء الفارغة- وبدرية الوز وتحتها الرز متواضعًا، فقد ظهرت شامخة مثل إنسانٍ متباهٍ بعمل جميل

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٠.

قام به أو نجاحٍ حقَّقَهُ؛ فقال(١):

تُرى يَشْتفي يومًا مشوقٌ وجائع　　　أَلَمَّتْ بهِ مِنْ ذا العنا وَجَائِع

وَيَحْظى ولَوْ في النَّومِ منَّا دام عائشًا　　　بِوَصلِ مِزاجٍ طالَ منهُ تَقاطُع

حكَتْ خَدَّ معشوقٍ حمارةُ لونِهِ　　　ومنْهُ كَخدِّ الصَّبِّ أصفرُ فاقع

على وجهِها كَمْ منْ قلوبٍ تكسَّرتْ　　　وإِنِّي لها بالجَبْرِ منْ كُلِّ طامع

وبدريّة الوزِّ التي ترافعَتْ على　　　صَحْن رُزٍّ تحتَها يَتواضَع

تَجُرُّ الحَشا جَزْمًا لِنَحْوِ صُحونِها　　　فَيَنْصِبُني وجدٌ لِصبريَ رافعْ

نعم إن الجائع يعاني من الجوع، والعاشق يعاني من الحب، وكلاهما محروم؛ الأوَّل من الطعام، والثاني من المحبوب، فالأول مجبر بسبب الحرمان، والثاني مكره بسبب العشق الذي غلب عليه؛ فعافت نفسه الطعام.

ونلاحظ أسلوب الفكاهة بيِّنًا في كلام الشاعر من خلال بكاء المدافع (الأمعاء) على الماوردية، وتعالي الوزِّ على الرزِّ كأنه شخص ذو مكانة اجتماعية مرموقة تعلو على الكثيرين من الناس، فضلًا عن النكات النحوية من جزم ونصب ورفع، استخدمها الشاعر بأسلوب رشيق رقيق.

أما باقي الأكلات التي وردت في الأبيات؛ فالقلوب انكسرت نحوها كما ينكسر قلب العاشق أمام محبوبته، بينما الملوخيا تزيَّنت وتبرَّجت؛ لتزيد قلبَ الجائع المحروم احتراقًا وألمًا، وتمنَّى الشاعر على الملوخيَّا أن تلمَّ قلوب الجائعين حولها كما لمت قلوب المحبين لها.

ولتأكيد الحرمان الكبير لكثير من الناس؛ استخدم الشاعر حرف التمني (ليت) الذي

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٢.

يتمنى به ما لا يمكن حصوله، وهو هنا: ثلاث قطع من المامونيات؛ لِيُسْكِتَ جوعه ويملأ معدته، كلُّ ذلك جاء بطريقة شيّقة فكهة قريبة من القلب؛ فقال[1]:

وَأَيْش يا ملوخيًّا يَلّي تزركَشَتْ ... يُرى منْكِ يا أُمَّ الوسام تَمائعُ

مُجمّعةَ الأحبابِ شَمْلي مَشَتَّتٌ ... وَصَحْنُكِ عنَّا شَمْلُ غيريَ جامعُ

فَيا ليتَ كَبا كَبيتنِ ثلاثةً ... بِحَلْقي مِنَ المامونياتِ طَوالِعُ

لِيَقْصُرَ عنْ قلبي تَطاول جُوعِهِ ... وَتُوصِلُهُ بعدَ القُطوع شبائعُ

الأرض والطبيعة:

وينتقل بنا ابن سودون إلى الحديث عن الطبيعة وما فيها، فيتحدث عن الأرض والسماء والفيل والزرافة، إنَّها من البديهيَّات والمسلمات التي لا تحتاج الى برهان أو دليل، فجاء بها بأسلوب فكه مضحك يشد القارئ والسامع، فقال[2]:

البحْرُ بَحْرٌ وَالبخيلُ بخيل ... وَالفِيلُ فِيلٌ والزَّرافُ طويلُ

والأرضُ أرضٌ والسَّماءُ خِلافُها ... وَالطَّيرُ فِيما بينَ بينَ يجولُ

مَنْ مِنَ الناس لا يقول عن البحر: إنه بحر، والبخيل: إنه بخيل، والفيل: فيل، والزراف: طويل، .... إلخ، لقد سمَّى الشاعر الأسماء بمسمياتها بشكل يسير واضح، ولكنه في الوقت عينه مضحك، فَكُلُّ من يسمعه أو يقرؤه لا يجد في كلامه جديدًا، هل طيران الطير في السماء أمر غريب؟! أم السماء فوق الأرض، والأرض تحت السماء أمر جديد؟! إنَّ كلَّ ما جاء به الشاعر هو من البديهيات ليضحكنا ويسلّينا، ويدخل إلى قلوبنا الفرحة التي

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٣.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٣.

غابت عن الكثيرين من الناس لأسباب مختلفة؛ منها الحرمان.

ويستمر الشاعر بهذا النهج الضاحك الساخر ليتحدث عن الرياح والعواصف، حين هبوبها تتمايل أغصان الأشجار في الرياض، وبعد نزول المطر تربو الأرض وتخضرُّ بعشبها ونباتها، وتتزيَّن بأزهارها؛ فيقول(١):

وَإذا تَعاصَفَتِ الرِّياحُ بِروضةٍ فَالأرضُ تنبتُ والغصونُ تَميلُ

وليس هذا فحسب، بل الماء يمشي على رمل ساكن ليشكِّل سيولًا تسيل بمائها(٢).

وَالماءُ يمشي فوقَ رملٍ قاعدٍ وَيُرى لَهُ مهما مشى سيلولُ

لقد وصف الشاعرُ الماء وسيلانه بطريقة فكهة من خلال كلمة سيلول، ولتناسب أيضًا وزن الأبيات، وهي من بحر الكامل.

إن الشاعر وهو يسمي بعض المسمَّيات من الفواكه والمأكولات يسميها بأسلوب تجعل السامع يشعر أنه غير محروم منها، وفي حقيقة الأمر صارت أمنية من الأماني يحلم بها كل محروم، فقال(٣):

يا ما أُحيل الموز وهو مُقَشَّرٌ يُرخى عليه القطرُ والعسلولُ

آه يا كنائفُ بالسَّكاكِرِ تُبّلَتْ قلبي لِفَقْدِك في الهوى متبولُ

من يسمع البيت الأول أو يقرؤه يحس أن المتكلم رأى الموز بقشره فتلهفت نفسه له، فكيف إذا كان مقشَّرًا وقد صُبَّ عليه القطر والعسل! إن هذا مستحيل عليه؛ لأنه ليس من مأكولاته التي هي أبسط من الموز بكثير.

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٣.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٣.

(٣) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٤.

ولكن الشاعر يذكر نوعًا آخر من المأكولات جعل نفسه تجاهها متبول الهوى، كما هو حال العاشق نحو محبوبته، ألا وهي الكنائف- (أكلة حلويات)- قد تُبِّلتْ وزُيِّنتْ لدرجة أصبح فؤاد من يراها متعلِّقًا بها كما يتعلق قلب العاشق بمحبوبته، ولنتخيل شخصًا محرومًا الطعام جائعًا يسمع دومًا مناديًا: إلى الطعام يا جائع، كم يكون وقع هذه العبارة على نفسه كبيرًا؟ وكم هو أثر ذلك في نفسه؟! فها هو ذا يقول(١):

دَعا بِعَيشِكُما يا عاذلي دُعا قلبي يُجيبُ كريمًا لِلطَّعامِ دَعا(٢)

إن المحروم لا يصدق ما يسمع، وهل يتردد في تلبية دعوة هذا الرجل إلى الطعام، وهو يحلم به ليل نهار، ولا ننسى أن الشاعر عمد إلى الجناس في هذا البيت من (دَعا) بفتح الدال، و(دُعا) بضمِّها، فالأولى والثالثة في البيت تعني المناداة، والثانية بضم الدال تعني الترغيب في الشيء وتقريبه، ويتوجه إلى اللَّائمين بأن يمهلوه قليلًا ؛كي يفوز بما يحلم به ويشبع بطنه، فيقول:

وأمهلاهُ رُويدًا كي يفوزَ بِما يَرجو مِنْ شِبَعٍ منْ نَيلِهِ طَمِعا

فإذا استطاع الجائع أن يملأ معدته بالطعام؛ فإنَّه يكون قد فاز بالجائزة!

وهنا يسترسل الشاعر بذكر أنواع الأكل المختلفة التي يحلم بها ويحبها؛ فيقول(٣):

رُفِعْتَ يا رُزُّ بالحلابِ منزلةً وَقِدْرُكَ العَسَلُ المِصريُّ ما وُضِعا

وَأنتَ عندي مُطاعٌ إنْ تقلْ لي فَمٌ كُلْني تجدْني لِمَا قدْ قُلْت مُستمعا

وَيا مَشورُ جَمَعْتَ المشورَ لِمَنْ لأكلتِكَ وإنْ كذَّبْتني قَنِعا

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٤.

(٢) دعا: من دَعَوَ، أي: نادى.

(٣) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٤.

وَيا دَجاجًا بدا في الصَّحنِ يُؤْكَلُ تَرثي لِمَنْ قلبُهُ منْ هَجْرِكَ قَنِعا

منكَ المُطَجَّنُ يرتاحُ الفُؤادُ لهُ مهما تَبدَّى على الصُّحونِ مُرْتفِعا

مُذْ حَمَّروه سَبَتْ عقلي حمارتُهُ وَعاذلي فيهِ ظلمًا ما رَعَا ورعا

إن وصف الشاعر لأنواع الطعام بهذه الطريقة الشيّقة الساخرة قد ربطها بالجانب النفسي عند المستمع والقارئ، فالرز بالحليب ذو منزلة عالية عنده، وهو سيكون مطيعًا له لو قال له الرزُّ: كُلني، ولن يتردَّد في ذلك، يا الله! ما أشبهه بالطالب والمطيع لسيّده لكونه يجد في ذلك مصلحته وفائدته، أما المشور؛ فقد جمع حوله الآكلين، فكيف بالدجاج المحمَّر المحشوّ والمشكاح والمطجن!

كل هذه الأنواع قد صوَّرها الشاعر، وجعل منها إنسانًا يجمع حوله الآكلين، في الوقت عينه فإنها قد سلبت عقول المحرومين كما تسلب المحبوبة فؤاده.

ومن بين الأكلات التي يذكرها (الفول)، فبالرغم من أن الفول مأكول شعبي؛ فقد ذكره الشاعر بطريقة جذَّابة، فرائحته تملأ الجو ساعة السحر، رائحة أعادت الحياة إليه، ثم وصف زهرة الفول، وشبَّهها بزهرة الكركس، وسنابل القمح تشبه البامياء، لولا تلك الأشعار البارزة من السنابل، وكأنها خصلات شعر الخيول؛ فقال[1]:

فَعطَّر الأرضَ نشرُ الفول حينَ سرَتْ نسمَةٌ سَحَرًا منه تُحييني

كأنَّ زهرتَهُ أُمُّ الخلولِ إذا فَلقْتَها فوقَ نعناعٍ بِصحنونِ

وَأشبهَتْ زهرتُهُ الكركسَ في جسدٍ وما تَقَرْطَمَ من زهراتِ نَسرينِ

وكادَ يشبهُ تاجُ القمح باميةً لولا شعورٌ كأطرافِ البَراذينِ

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٥.

إننا نلمُس جانبًا اجتماعيًّا في ذكر الفول وهو الحرمان، فرغم أن الفول مأكولُ معظم أفراد المجتمع المصري؛ ولكن بعضهم محروم منه لفقره، فجاء ذكره بهذه الطريقة المشوقة- فوق نعناع بصحنون التي لا يحصل فيها على الفول، بل على رائحته فحسب.

وينتقل بنا الشاعر إلى ذكر بعض أنواع الحلويات؛ ومنها المأمونية، وهي على ما يبدو أكلة حلوٍ طيّبة شهيَّة؛ فقال[1]:

لامٌ وَلامٌ وَلامٌ هُنَّ لاماتُ لا ماتَ قومٌ لهمْ بِالحلْوِ لاماتُ

الأواني منهمُ وَإِنْ وُجِدتْ إلى هذا سبيلًا ولي في العجزِ نِيَّاتُ

فكم آمنْتُ بِمأمونيَّةٍ وَرَدَتْ مِنْ خوفِ جوعٍ لهُ في القلبِ رَجفاتُ

بدأ الشاعر حديثه بطريقة مشوّقة فكهة ساخرة قوله: لام (ثلاث مرات)، ومَنْ أكل من المأمونية ثم مات، فكأنه لم يمت؛ لكونه حقق أمنيةً عجز الكثيرون عنها، وكم هفت إليها القلوب ورجفت من دون أن تحصل عليها، وما ذكر رجفان القلب هنا إلا لارتباطه بالمأمونية وميله إليها كما يرتبط القلب المحب وهفوه إلى محبوبته.

وينقلنا الشاعر إلى المنطق بطريقته المعهودة بالسخرية والضحك عندما يبين أن من ينام في الماء تكون ملابسه جافة، ومن ينام تحت الشمس ضحى لن يناله البلل،كما أن المرء يضحك في فرحه، ويبكي في حزنه، وفي هذا يقول[2]:

وَمَنْ نامَ وسْطَ الماءِ في الليلِ بلَّهُ وَليسَتْ تبلُّ الشمسُ مَنْ نامَ في الضُّحى

وَقدْ يضحكُ الإنسانُ أوقاتَ فرحهِ ويبكي زمانَ الحزنِ مهما قدِ ابْتُلِي

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٦٨.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٧٤.

مَنْ مِنَ البشر لا يعرف أن النوم وسط الماء يبلل الثياب؟ وهل ينام المرء في الماء أصلًا؟ وهل المرء لا يضحك ساعة الفرح؟ إنه أسلوب منطقي فكه جاء به ابن سودون.

ومن الجوانب المنطقية التي ذكرها ابن سودون: حديثه عن السماء، إنها فوق الأرض والأرض تحتها، وكل هذا الكلام لا يحتاج إلى برهان؛ لكونه واقعًا معروفًا للجميع، وفي هذا يقول(١):

إذا ما الفتى في النَّاسِ بالعقلِ قدْ سَما تَيَقَّنَ أنَّ الأرضَ مِنْ فوقِها السَّما

وَأنَّ السَّما تحتها الأرضُ لم تزلْ وَبينَهما أشيا متى ظهرَتْ تُرى

والأكثر إضحاكًا للناس حديثه عن الإنسان نسل آدم، وابن سودون نفسه واحد منهم، وكذلك أبوه زوج أمه، وابن سودون ابنهما، والأعمى لا يرى خياله، والمبصر يرى الشمس حين تبزغ، قال ذلك بأسلوب مضحك فكاهي خفيف، وليبين الفارق بين الشخص السليم من البشر وبين صاحب العاهة؛ فقال(٢):

فَمِنْ ذاك أنَّ الناسَ منْ نسلِ آدمٍ ومنهم ابن سودون أيضًا وإنْ قضى

وإنَّ أبي زوجٌ لأمّي وأنَّني أنا ابنُهما والناس هم يعرفونَ ذا

وليس يَرى أعمى العيون خيالَهُ وَيُبصِرُ ذو العين في الشمس إن بدا

إن جانب الفكاهة واضح في كل كلمة من كلماته، متى كان الأعمى يرى خياله مثلًا؟

ما جاء ابن سودون بهذا إلَّا للفكاهة والسخرية بآن واحد؛ من أجل تخفيف معاناة الأفراد بهذا النمط من القول، فضلًا عن الفارق بين الشخصين كما ذكرنا آنفًا.

وبعد كل هذا يُوصلنا الشاعر إلى أنه ما ذكر ذلك إلا ليدلل على ذكائه باكتشافه هذه

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٧٤.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٧٤.

الأمور المنطقية والبديهية.

وفي حقيقة الأمر هو يريد إضحاكنا ونسيان ما نحن فيه من شدة وحرمان، وألم وجوع فقال(١):

وعندي علومٌ بعدَ هذا كثيرةٌ تدُلُّ على أنِّي من الناس يا فتى

يُقَصِّرُ عنها النِّيلُ مع طولِ باعِهِ وَيضعُفُ عنْها الطَّودُ مع شدَّةِ القُوى

وَما علَّمني ذاك أُمِّي ولا أبي وَلا امرأةٌ قد زوَّجاني وَلا حَمِي

وَلكنَّني جرَّبْتُها فَعَرفْتُها وحرَّرتُها بالحِذْقِ والفَهمِ والذَّكا

فيا بَخْتَ أهلي بي يا هَناهُمُ إذا سمعوا أنِّي أفوقُ على الحِجا

نعم، يا بخت أهله يا هناهم بهذا المخترع المكتشف لأمور يعرفها كل الناس!

إنه شاعر بطريقته الخاصة الساخرة والفَكِهَة يدلنا على كيفية وصوله إلى هذه المكتشفات عن الإنسان والمجتمع لا يقدر عليها إلَّا ذكي! وكأنها اكتشاف الجاذبية الأرضية.

إنَّ ذكر المأكولات بهذه الطريقة المضحكة والساخرة تعكس بعدًا اجتماعيًّا ونفسيًّا؛ هو أن طبقة عريضة من أفراد المجتمع قد حُرِمتْ من مثل هذه الأنواع من المأكولات على بساطتها، ودليل ذلك قوله(٢):

وأمَّا الكنافة في قطر النبات فكم منها تقطَّر دمعُ العين قطرورا

لولا العصِيُّ غدتْ بالضَّرْب فاضلةً فلم أجِدْ سَبَبًا للرَّجفِ ميسورا

وبذلك نستخلص أمرين هامين هما: المعاملة السيئة غير الإنسانية التي يلاقيها الفقراء

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٧٤.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٧٣، ٧٤.

والمحرومون من الأغنياء عمومًا.

والثاني: أن يُمَنِّي الفقيرُ نفسه بطعام في جنة الفردوس؛ لكونه فقد الأمل به في دنياه.

الجانب الاجتماعي:

الجوانب الاجتماعية التي تحدث عنها الشعراء كثيرة ومعروفة، ولا تخفى على الكثيرين من الناس، وما يهمنا هنا ما توقف عنده شاعرنا ابن سودون- موضوع بحثنا- فقد توقف عند بعض العادات الاجتماعية في المجتمع المصري في زمانه، من بينها: (الختان) والتقاليد المتبعة في ذلك، وفرح الأم والأهل وأبناء بلدته بختانه، فضلًا عن حديثه عن الأعراس والزواج وأوصاف عروسه وغير ذلك، ها هو ذا يحدثنا عن طهوره فيقول[١] :

وَرأيْتُ لمَّا طهَّروني في زَفَّةٍ قد دوَّرا فيها الزُّراف وفِيلا

فيها رأيتُ النَّاسَ حولي قدْ مشَوا هذا يمنونًا وذا شَملولا

فبدلًا من أن يقول: (يمينًا وشمالًا) قال : (يمنونًا وشملولًا) وهي لفظة مضحكة، والطهور هنا أشبه بأعراس الزواج؛ حيث يزف الطفل المنويُّ ختانه والناس من حوله وحواليه، وليس هذا فحسب؛ إنما يؤتى بالزرافة والفيل يمشيان أمامه، وهي عادة متَّبعة في ختان الأطفال.

والشاعر يُفَصِّل القول في هذه العادة، ويجعل من نفسه محور الحديث، فيقول[٢]:

قد فاتَكُمْ يا ناسُ يوم طَهوري والطَّبلخانةُ عندنا بِزمُّورِ

أنا بسلاري على فرسٍ لهُ سرْجٌ يلوحُ كَصُفرةِ القزدير

والناسُ مِنْ حولي تلوحُ سُيوفُهُمْ عُريانةً أعني بِغيرِ قُشور

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٠.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٠- ٨١.

حتى وصلْنا البيتَ راحُوا كلُّهم وَبقيتُ وحدي كالمَنامِ الزُّورِ

نعم لقد أركبوه على فرس، والفرس سرجه أصفر، حتى أوصلوه إلى بيت أهله، وبعد ذلك يصف الرجل الذي سيقوم بختانه؛ وهو الحلاق، حين لم يكن طبيب يقوم بهذه سوى حلَّاق القرية، فقد أقبل وبيده موسه الحاد، الأمر الذي أدخل الرعب على قلب الطفل المنويّ ختانه، فمن شدة خوفه بالَ تحته، وفي هذا يقول الشاعر(١):

وَأتى المُزيّنُ آه ما أقسى قلبَهُ بالموسِ مسنونًا لِقَطْع سُروري

شخَّيتُ حشاكم في ثِيابي عندَما عاينْتُهُ بالموسِ يقطعُ زَبْري

بقدر ما كان الطفل فرحًا بما هو فيه؛ تحوَّل الفرح عنده إلى بكاء وألم وخوف ورعب، ولكنَّ الشاعر عكس ذلك حقًّا بطريقة فكهة من خلال أثر ذلك على الطفل.

وينتقل بنا الشاعر إلى وصف عروسه بسخرية مضحكة كاريكاتيرية، عروسه أكبر منه سنًّا، ولكنه أكبر منها عقلًا كما يزعم(٢):

هذا وَعَقل عَروسي كانَ أصغرَ مِنْ عَقْلي وَلكنْ حَوَتْ في عُمْرِها كِبَرا

في السِّنِّ قد طعنَتْ ما ضرَّ لو طَعنَتْ بالسَّنِّ منْ رمحٍ أو سيفٍ قدِ انبتَرا

وعروسه تعضُّه بأسنانها المنتشرة مسببة له الألم:

تعضُّ ولا أخشى منْ عَضِّها ألَمًا إذ نَظْمُ أسنانِها مِنْ ثغْرِها انْتَثَرا

إن وصفه عروسه بهذه الطريقة الساخرة؛ وكأنها وحش مفترس أو كلب ينهش العظم

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٠.

(٢) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٤.

شدَّ الانتباه إلى قوله الساخر، فضلًا عن وصفه أسنانها وصفًا ساخرًا مضحكًا بقوله[١]:

يا حُسْنَ قامتِها العوجا إذا خطرَتْ　　يومًا وقد سبْسَبَتْ[٢] في جِيدِها شَعْرا

يُحاكي لفائِفَ في شمسٍ قدِ انتشرتْ　　فَإِنْ تَبلْبَلَ في سِدْرٍ حكى كِبَرا

قامتها عوجاء، وهذا كاف للسخرية منها، أما شعرها فيكفيه بلل؛ ليبيّن كبر صاحبته.

ولكن عروسه ما توقفت عند هذه الأوصاف المادية؛ إنما فيها من العيوب ما هو أدهى وأمر، حيث النمش يملأ جسدها، والطرش في أذنيها، والعمش في عينيها فيقول[٣]:

في لونِها نَمَشٌ في أُذْنِها طَرَشٌ　　في عينِها عَمَشٌ لِلْجَفْنِ قدْ سَتَرا

أما بقية أوصافها؛ فهي أشبه بالدُّمية لم تترك البشاعة منها شيئًا إلا وأخذت منها بطرف، بطنها مبعوج، وكفُّها مفلوج[٤]، عرجاء الرِّجل، محدوبة الظهر، يقول[٥]:

في بطنِها بَعَجٌ في رِجْلِها عَرَجٌ　　في كَفِّها فَلَجٌ ما ضرَّ لو كُسِرا

في ظَهْرِها حَدَبٌ في نَحْرِها كُبَبٌ　　في عُمْرِها نُوَبٌ قدْ رأَتْ مَحْبَرا[٦]

ما هذه العروس الجميلة؟ لم تسلم حتى من الأمراض، فهي تعاني من الغدَّة الدرقية وهي في نحرها كالكُبَّة! وصف ساخر مضحك!

ويحدثنا الشاعر عن ذكريات عُرْسِهِ وزفافه المليئة بالأوصاف الساخرة، ولكنها أعادته

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٤٠.

(٢) سبسبت: أسدلت.

(٣) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٤.

(٤) أفلج : متباعد.

(٥) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٤.

(٦) الكبب: ما يشبه الكبة.

إلى أيام طفولته أيام ختانه وفرح أهله به؛ فيقول(١):

بالمَحْملِ الأفراحُ عمَّتْ سائري إذْ سارَ ما أحلاهُ لي منْ سائرِ

يا مُذكِري بالطَّبلخانَةِ زَفَّتي لِلْعودِ قدْ شوَّقْتَ مِنّي خاطِري

وأنا أسيرُ مِنَ الهَنا مُتمَايِلًا بالفَرْحِ قَدْ دَقَّتْ لِذي بَشائِر

إنَّها أيَّام الفرح والسرور، حيث أُلْبِسَ ثوبًا أصفر يسر الناظرين لونه(٤):

أدامَ اللهُ أيَّامَ السُّرورَ بِزينةِ محملٍ بادي السُّرور

عليهِ حُلَّةٌ صفراءُ فاقَتْ تَسُرُّ النَّاظرينَ مِنَ الحريرِ

يسيرُ بِمَوكِبٍ قدْ زُفَّ فيهِ يُذَكِّرُني بهِ يومَ الطهورِ

ذكريات العرس جميلة وهنية، لولا أنه ربطها بالختان الذي رسم له صورته الحزينه الباكية، لكنها بالمجمل صور مضحكة خفيفة تجنح إلى الواقع في كثير منها.

إنَّ ما ذكرته من جوانب الفكاهة عند ابن سودون غيض من فيض الفكاهة لديه، وما هو عنده من الفكاهة في النثر يفوق كثيرًا ما هو في الشعر، ولعلَّني أُخَصِّص له دراسة مستقبلًا.

(١) ابن سودون، مخطوط، ص: ٨٩.

خاتمة البحث:

تحدثنا عن الفكاهة عند ابن سودون في بعض أشعاره بعد أن أصَّلنا للبحث؛ لأنه- كما نراه- جاحظ عصره، وسيِّد الظرفاء والساخرين، الذي يحتلُّ مكانة بارزة في أدبنا العربي، في فترةٍ تميَّزت بالزهو الأدبي وقوة البيان، اتسم فيها الأدب بالقوة والرصانة مع كثرة المشتغلين بالأدب.

إننا نرى ابن سودون متفرِّدًا في تلك الفترة، وخاصة في هذا اللون الأدبي الذي يشغل مساحة كبيرة في الحقل الأدبي الساخر، وتجربة لها خصوصياتها من حيث التصوير والإبداع، والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأشياء، وتحتل ظاهرة السخرية في أدبه مكانة متفردة؛ لكونها أحد عوامل اعتدال الشخصية المصرية، وصاحبها اعتمد على المفارقات اللفظية في شعر الفكاهة عنده، فضلًا عن أنه أحد أكبر الزجالين الهزليين في عصره.

وابن سودون بطبيعته على ما يظهر في شعره شخصية فكاهية تشبه إلى حدٍّ بعيد الممثل الكوميدي في عصرنا الحاضر، والفكاهة في شعره تعد بحق مرآة صادقة لعصره اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، لم يترك ابن سودون مجالًا فيه عيب إلا وكان له من سخريته فيه نصيب.

لقد كانت سخريته بناءً لا هدمًا، يسخر ليصل بمخاطبيه إلى حدِّ المثالية لا ليُظهِرَ العيوب فيجرح أو يؤذي؛ بل ليبني، ربما الذي جعل للفكاهة أهمية عنده؛ تلك الفترة التي عاشها، فكانت متنفَّسًا لمجتمعه، ومخرجًا له من شقائه وعذابه.

إن الفكاهة والضحك والسخرية والمزاح تعدُّ عاملًا من العوامل التي ساهمت في اعتدال الشخصية المصرية سلوكًا ومُزاحًا، وهي مبنية على قيم ومبادئ إسلامية.

إنه في ذلك يبحث عن القيم والمبادئ والعدل والطهارة والحرية، والسلوك الحسن، والأخلاق الحميدة.

المصادر والمراجع

- إبراهيم زكريا، د.ت، «سيكولوجية الفكاهة والضحك»، مكتبة مصر.

- ابن الأثير، مجد الدين، أبو السعادات، ت:٦٠٦هـ، تحقيق: مُحَمَّد محمود الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، «النهاية في غريب الحديث والأثر»، المكتبة العلمية، بيروت.

- بطيش سيمون، ١٩٨٣، «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبُّود»، دار مارون عبود، لبنان.

- أبو داود، زاهر، د.ت، «الفكاهة في الإسلام»، المكتبة العربية، دمشق.

- الأصبهاني العماد، د.ت، تحقيق: أحمد أمين وشوقي ضيف، «خريدة القصر وجريدة العصر»، قسم شعراء مصر، دار الفكر العربي، مصر، ٢٠٠٥.

- التوحيدي؛ أبو حيَّان، تصحيح: أحمد أمين وأحمد الزين، د.ت، «الإمتاع والمؤانسة»، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- الجاحظ؛ أبو عثمان، ١٩٦٩م تحقيق: فوزي عطوي، «البخلاء»، الشركة اللبنانية للكتاب والطباعة والنشر، بيروت.

- حمزة عبد اللطيف، د ت، "الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي»، دار الفكر، بيروت.

- حمزة عبد اللطيف، ١٩٨٢م، «حكم قراقش»، دار الهلال، القاهرة.

- ابن حنبل أحمد، مراجعة صدقي جميل العطار، ١٤١٢هـ- ١٩٤٤م، «المسند»، مراجعة: ١٩٤٤م.

- الحنبلي؛ ابن العماد، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، «شذرات الذهب»، دار ابن كثير، دمشق.

- الحوفي أحمد، ١٩٥٦م، «الفكاهة في الأدب العربي أصولها وأنواعها»، مكتبة نهضة مصر.

- زغلول مُحَمَّد سلام، د.ت، «الأدب في العصر الفاطمي»، منشأة معارف الإسكندرية.

- السخاوي، شمس الدين؛ مُحَمَّد بن عبد الرحمن، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، دار الجبل، بيروت.

- سلام مُحَمَّد زغلول، د.ت، «الأدب في العصر الفاطمي»، دار منشأة المعارف، الإسكندرية.

- السيوطي جلال الدين، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م، ط٤ «الجامع الصغير»، مطبعة البابي الحلبي.

- تنسيق: الشايب أحمد، مجموعة من الباحثين، ٢٠١٤، «أبحاث في الفكاهة والسخرية»، دار أبي رقراق، المغرب.

- ضيف شوقي، ١٩٨٨م، «الفكاهة في مصر»، دار المعارف، مصر.

- العقاد عباس محمود، ١٣٥٥هـ- ١٩٢٧م، «سعد زغلول سيرة وتحية»، مطبعة حجازي، القاهرة.

- الماوردي، أبو الحسن؛ علي بن مُحَمَّد،١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م، «أدب الدنيا والدين»، ط١٧، المطبعة الأميرية بالقاهرة.

- ابن منظور جمال الدين، د.ت، «لسان العرب»، مطبعة دار صادر، بيروت.

المجلات:

– أبو زيد أحمد، «الفكاهة والضحك»، مجلة عالم الفكر، مجلد ١٣، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، ١٩٨٢.

– الشريف مُحَمَّد فضل الله، «أهمية الفكاهة في حياة الناس»، مجلة دار العلوم، ديوبد، العدد فبراير ومارس، ٢٠١٠م.

– عبد الحميد شاكر، «الفكاهة اللطيفة والسخرية المؤلمة»، مجلة الدوحة، العدد ٧٠، أغسطس، ٢٠١٣م.

– اليوسفي مختار، «الضحك والسخرية عند القدماء المصريين»، مجلة الهلال، عدد: ٤٩، ديسمبر، ١٩٩٥م.